نعيم الجنة لا حدود له

يقول رب العزة سبحانه فى الحديث القدسى:

٦ « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطرعلى قلب بشر »[1].

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥) ﴾. [البقرة: ٢٥]

فالحق سبحانه يبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بجنات تجرى من تحتها الأنهار.. والجنات جمع جنة، وهى جمع لأنها كثيرة ومتنوعة، وهناك درجات فى كل جنة أكثر من الدنيا.

اقرأ قوله تبارك وتعالى:

﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾.

[الإسراء: ٢١]

فالجنات نفسها متنوعة، فهناك جنات الفردوس، وجنات عدن، وجنات نعيم، وهناك دار الخلد، ودار السلام، وجنة المأوى، وهناك عليون الذى هو أعلى وأفضل الجنات.

وأعلى ما فيها التمتع برؤية الحق تبارك وتعالى، وهو نعيم يعلو كثيرًا عن أى نعيم فى الطعام والشراب فى الدنيا.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٢/ ٤٦٦) وأبونعيم فى الحلية (٢/ ٢٦٢) من حديث أبى هريرة -رضى الله عنه.

والطعام والشراب بالنسبة لأهل الجنة لا يكون عن جوع أو ظمأ، وإنما عن مجرد الرغبة والتمتع، والله جل جلاله فى هذه الآية يعد بأمر غيبى، ولذلك فإنه لكى يقرب المعنى إلى ذهن البشر، لابد من استخدام ألفاظ مشهودة وموجودة، أى عن واقع نشهده.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾ [السجدة: ١٧]

إذن: ما هو موجود فى الجنة لا تعلمه نفس فى الدنيا، ولا يوجد لفظ فى اللغة يعبر عنه، ولا ملكة من ملكات المعرفة كالسمع والنظر قد رأته.

ولذلك استخدم الحق تبارك وتعالى الألفاظ التى تتناسب مع عقولنا وإدراكنا.

والحق هنا يقول عن أهل الجنة أنهم:

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ [البقرة: ٢٥]

فيعتقدون أن هناك تشابهًا بين ثمر الدنيا وثمر الجنة، ولكن الثمر فى الجنة ليس كثمر الدنيا، لا فى طعمه ولا فى رائحته.

وإنما يرى أهل الجنة ثمرها ويتحدثون ويقولون: ربما تكون هذه الثمرة هى ثمرة المانجو أو التين الذى أكلناه فى الدنيا، ولكنها تختلف تمامًا فى الحقيقة، قد يكون الشكل متشابهًا، ولكن الطعم وكل شىء مختلف.

فى الدنيا كل طعام له فضلات يخرجها الإنسان، ولكن فى الآخرة لا يوجد لطعام فضلات، بل إن الإنسان يأكل كما يشاء دون أن يحتاج إلى إخراج فضلات، وذلك لاختلاف ثمار الدنيا عن الآخرة فى التكوين.

إذن: ففى الجنة الأنهار مختلفة والثمار مختلفة، والجنة يكون الرزق فيها من الله سبحانه وتعالى الذى يقول للشىء «كن فيكون» ولا أحد يقوم بعمل.

فالحق سبحانه يعطينا صورة عن شىء هو الآن غيب عنا، وسيصير بإذن الله وبمشيئته مشهدًا، ونحن نعرف أن الجنة بها كل ما تتمناه النفس.

ونحن نعلم أن الكائنات الوجودية يعرفها الإنسان بما يناسب إدراكه، فقال رب العزة سبحانه فى الحديث القدسى:

«ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت».

والعين حين ترى تكون محدودة، لكن السمع دائرته أوسع من الرؤية، لأنه سيسمع ممن رأى، إنه سمع فوق ما رأى.

إذن: فدائرة الإدراكات تأتى أولاً: بأن يرى الإنسان، ثم بأن يسمع، وهو يسمع بأكثر مما يرى.

ثم يقول: **«ولا خطر على قلب بشر».**

أى: أن ما فى الجنة أكبر من التخيلات، إذن: فكم صفة هنا للجنة؟

الأولى: قوله «ما لا عين رأت» ،والعين مهما رأت فدائرتها محدودة.

والثانية: قوله: «ولا أذن سمعت»، والأذن إن سمعت فدائرتها أوسع قليلاً.

والثالثة: قوله: «ولا خطر على قلب بشر». وهذا أوسع من التخيلات.

فإذا كنت يا حق سبحانك ستعطينا فى الجنة «ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

فبأى الألفاظ يا ربى تؤدى لنا هذه الأشياء، وألفاظ اللغة إنما وضعت

لمعانٍ معروفة، وما دمت ستأتى بشىء لم تره عين، ولم تسمعه أذن، ولا يخطر على قلب بشر، فأى الألفاظ ستؤدى هذه المعانى؟

لقد أوضح ﷺ أنه لا توجد ألفاظ؛ لأن المعنى يُعرف أولاً، ثم يوضع له اللفظ، فكل لفظ وُضِع فى اللغة معروف أن له معنى.

لكن ما دامت الجنة هذه لم ترها عين، ولم تسمعها أذن، ولم تخطر على قلب بشر، فلا توجد كلمات تعبر عنها.

لذلك لم يقل: إن الجنة هكذا، بل قال: «مثل الجنة»، أما الجنة نفسها فليس فى لغتنا ألفاظ تؤدى هذه المعانى.

وحيث إن هذه المعانى لا رأتها عين، ولا سمعتها أذن، ولا خطرت على قلب بشر، لذلك فليس فى لغة البشر ما يعطينا صورة عن الجنة.

وأوضح الحق سبحانه: سأختار أمرًا هو أحسن ما عندكم، وأعطيكم به مثلاً.

قال سبحانه:

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ . [محمد: ١٥]

ونحن نرى الأنهار، والحق يطمئننا هنا بأن أنهار الجنة ستختلف فهو سبحانه سينزع منها الصفة التى قد تعكر نهريتها، فقد تقف مياه النهر وتصبح آسنة متغيرة، فيقول: «أنهار من ماء غير آسن».

إذن: فهو يعطى اسمًا موجودًا وهو النهر، وكلنا نعرفه، لكنه يوضح: أنا سأنزع منه الأكدار التي تراها فى النهر الحادث فى الحياة الدنيا.

وأيضًا: فأنهار الدنيا تسير وتجرى فى شق بين شاطئين، لكن أنهار الجنة سترى الماء فيها وليس لها شطوط تحجز الماء لأنها محجوزة بالقدرة.

وستجد أيضًا أنهارًا من لبن لم يتغير طعمه، فالعربى كائن يأخذ اللبن من الإبل، ويخزنه فى القرب، وبعد ذلك ترحل الإبل بعيدًا إلى المراعى وإلى حيث تسافر، وعندما كان الأعرابى يحتاج إلى اللبن فلم يكن أمامه غير اللبن المخزون فى القرب، ويجده متغير الطعم لكنه لا يجد غيره.

لذلك يوضح الحق: سأعطيكم أنهارًا من لبن فى الجنة لم يتغير طعمه.

ثم يقول: «وأنهار من خمر» وهم يعرفون الخمر ولنفهم أنها ليست كخمر الدنيا، لأنه يقول: «مثل» ولم يقل الحقيقة فقال: «أنهار من خمر» لكنها خمر «لذة للشاربين».

وخمر الدنيا لا يشربها الناس بلذة، بدليل أنك عندما ترى من يشرب كأس خمر، فهو يسكبه فى فمه مرة واحدة، ليس كما تشرب أنت كوبًا من مانجو وتتلذذ به، إنه يأخذه دفعة واحدة ليقلل سرعة مروره على مذاقاته لأنه لاذع ومحمض، وتغتال العقول وتفسدها. لكن خمر الآخرة لا اغتيال فيها للعقول.

إذن: فحين يعطينى الحق مثلاً للجنة، فهو ينفى عن المثل الشوائب، ولذلك نجد الأمثال تتنوع فى هذا المجال، فالعربى عندما كان يمشى فى الهاجرة، ويجد شجرة «نبق» ويقال لها «سدر» كان يعتبرها واحة يستريح عندها، ويجد عليها النبق الجميل، فهو يمد يده ليأكل منها، لكنه قد يجد شوكًا فيتفادى الشوك.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾. [محمد: ١٥]

كان العرب يأخذون العسل من الجبال، فالنحل يصنع خلاياه داخل

شقوق الجبال، وعندما كانوا يخرجون لعسل من الجبال يجدون فيه رملاً وحصى، فأوضح الحق سبحانه: ما يعكر عليك العسل هنا فى الدنيا أنا أصفيه لك هناك، ومع أنه مثل لكنه يصفيه أيضًا، ولماذا مثَّل؟ لأنه ما دام نعيم الجنة «لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»، فتكون لغة البشر كلها لا تؤدى ما فيها، لكنه سبحانه يعطينا صورة مقربة.

ويضرب الله المثل بالصورة المقربة للأشياء التى تتعالى عن الفهم يقربها من العقل.

ومثال ذلك: عندما أراد سبحانه أن يعطينا صورة لتنوير الله الكون، وليس لنور الله الذاتى، بل لتنوير الله للكون، فيقول:

﴿ مثلُ نُوره كمشكاةٍ فيها مصباحٌ المصباحُ في زُجاجةٍ الزُّجاجةُ ﴾. [النور: ٣٥]

فالحق سبحانه يضرب مثلاً لنوره، هذا النور الذى يضىء الدنيا والآخرة، فيضىء القلوب المؤمنة.

إنه يريد أن يضرب لنا مثلاً لهذا النور بشىء مادى محس.

فالحق سبحانه يضرب مثلاً للمعنويات ليتعرف إليها لناس، فهو يقدم لها بأمر مادى يتفق عليه الكل، ليقرب الأمر المعنوى أو الغيبى إلى أذهان الناس؛ لأن المعنويات والغيبيات يصعب إدراكها على العبد.

فلذلك فهو سبحانه وتعالى يقرب هذا الأمر ويبينه بأن يضرب لنا مثلاً من الأمور المادية المحسَّة، حتى تقترب الصورة من الأذهان، لأننا جميعًا نرى الماديات.

وبهذا يلحق سبحانه الأمر المعنوى، وهو غير معلوم لنا بالأمر المادى الذى نعرفه، فتقترب الصورة من أذهاننا وتتضح لنا.

وهكذا شاء الحق سبحانه وتعالى أن يلحق المجهول بالنسبة للناس بالمعلوم عندهم.

والنور الحسى المادى نعمة عامة خلقها الله سبحانه وتعالى بقانون الربوبية الذى يعطى النعم لجميع خلقه فى الدنيا، سواء من آمنوا أم لم يؤمنوا؟

وأكبر ما فيه نور الشمس الذى يستفيد منه كل الخلق، المؤمن والعاصى، والكافر والمشرك، والمسخر من حيوان أو نبت أو جماد.

فإذا غابت الشمس نجد كل واحد منا يستعين بنور يعطيه الضوء فى حيز محدود وعلى قدر إمكاناته، فواحد يوقد شمعة، وواحد يأتى بمصباح «جاز» صغير، وواحد يستخدم الكهرباء فيأتى بمصباح «نيون»، وواحد يأتى بالعديد من مصابيح الكهرباء ليملأ المكان بالنور، كل على قدر إمكاناته.

فإذا طلعت شمس الله، فهل يُبقى أحد على مصباحه مضاء؟

إن الجميع يطفئون مصابيحهم؛ لأن شمس الله قد سطعت تنير للجميع، ذلك هو النور الحسى.

وفى المعنويات نور أيضًا، فالنور المعنوى يهديك إلى القيم حتى لا ترتطم بالمعنويات السافلة التى قد تقابلك فى مسيرة الحياة.

إذن: فكل ما يهدى إلى طريق الله يسمى نورًا.

يقول الحق سبحانه:

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) ﴾ . [المائدة: ١٥]

إنه نور المنهج الذى ينير لنا المعنويات، وينير لنا القيم، فلا يحقد أحدنا

على الآخر، ولا يحسد أحدنا الآخر، ولا يرتشى أحد، ويرعى كل منا حقوق غيره.

ويقرب لنا الحق سبحانه وتعالى الأمر فى مثل مادى عن معنى نور الله، فيقول سبحانه:

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾ . [النور: ٣٥]

أى: أن نوره سبحانه وتعالى يملأ السماوات والأرض، وأنه يحيط بكل جوانب الحياة على الأرض، فلا يترك جانبًا منها مظلمًا، فنور الله سبحانه فى السموات والأرض نور شامل لا يدع مكانًا مظلمًا ولا مكانًا يختفى فيه شىء بسبب الظلام.

تمامًا كمثل تلك الدائرة الصغيرة التى يشع منها نور المصباح، فلا تجد فيها ملليمترًا واحدًا من الظلام.

ولذلك ينبهنا الحق سبحانه إلى هذه النقطة، ويوضح لنا أنه يعطينا معنى تقريبيًا، حتى نستطيع أن نفهمه، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُون ﴾. [محمد: ١٥]

أى: أنها ليست هى، ولكنه مثل فقط، يُقرِّب المعنى إلى ذهنك، خذ صورة من المجتمع الذى تعيش فيه، أنت تحتاج إلى مسكن لتسكن وتستريح فيه من عناء الحياة. وهناك من عنده مسكن من حجرة واحدة، فإذا ترقى يكون المسكن من حجرة وصالة أو حجرتين وصالة.

ثم بعد ذلك يزداد الرقى، فيبحث عن شقة واسعة، فإذا ارتقى كان له مسكن خاص «فيلا»، فإذا ارتقى جعل حول مسكنه حديقة، وهكذا يزداد الرقى.

إذن: فالمسألة لم تَعُدْ مكانًا تأوى إليه فقط، بل ترتقى فى الإيواء كلما ارتقيت فى الحياة، فتتحقق لك المتعة فى الإيواء.

ولهذا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ . [التوبة: ٧٢]

أى: هناك جنات وهناك مساكن؛ لأن الإنسان يحب فى بعض الأوقات أن يجلس بمفرده وحوله المتعة التى تخصه، وفى أحيان أخرى يحب أن يجلس مع الناس فى مكان جميل، مثلما يحدث فى الأعياد والمناسبات، عندما نخرج إلى الحدائق والبساتين، ونجلس معًا.

فكأن الجنات هى للرفاهية الزائدة، عندما تحب أن تجتمع مع الناس، أتمتع بها أنا وأنت وغيرنا، أما المساكن فهى للخصوصية، فيكون لكل واحد مكان خاص يجلس فيه ويتمتع بما حوله.

إذن: فالجنات صورة من البساتين، ولكنها ليست مصنوعة بالأسباب، بل هى من صناعة المسبب جل وعلا.

ونحن حينما نذهب إلى بيت إنسان ثرى. قد نجد أن للبيت حديقة: يشرف عليها بستانى متمكن من عمله، ويقوم بتنسيق الزهور والأشجار بشكل يناسب ثراء المالك.

ويكون إعجابنا فى هذه الحالة بالحديقة إعجابًا كبيرًا بحيث نجلس فيها، ونكره أن نغادرها.

فإذا كان هذا هو ما يحدث بقدرات البشر، فكيف بهذه الحدائق التى صنعت بقدرة الله سبحانه وتعالى؟ وكيف يكون جمالها وحلاوتها والمتعة فيها؟

إن الذى وعدنا بهذه الجنات هو الحق سبحانه وتعالى، وهو قادر على أن ينفذ ما وعدنا به، من جنات فيها من الكماليات والرفاهية مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وجعل سبحانه هذه الجنات واسعة شاسعة، فيها زروع وأزهار وأشكال، تسر العين بجمالها، وتمتع اللمس بنعومتها، وتملأ الأنوف برائحتها الزكية.

ومن ميزات جمالها أن الأنهار تجرى من خلالها، ولكنها لا تجرى من فوقها بل تجرى من تحتها، ومنابعها من مكان آخر، أو تحتها ومنابعها ذاتية. أى: ينبع من نفس المكان، وكأن كل نهر ينبع من تحت جنة خاصة به.

وإذا أردت أن تعرف جمال هذه الأنهار، فهو جمال قد صنعه الحق سبحانه وتعالى.

وإذا كنا فى حياتنا نرى أن لكل نهر شاطئين، فإن أنهار الجنة تجرى من غير شواطىء، وإنما يمسكها الذى أمسك السماء أن تقع على الأرض، ثم تجد الأنهار قد تشترك فى المجرى، نهر اللبن، ونهر العسل، ونهر الماء، ونهر الخمر.

وكلها تجرى فى مجرى واحد، ولكنها لا تختلط ببعضها البعض، فكل منها منفصل، لأن الحق سبحانه وتعالى هو الصانع، وتبارك من صنع.

ويعطينا سبحانه وتعالى بعد كل ذلك، ميزة الخلود فى هذه الجنات فيقول: ﴿ خالدين فيها ﴾. [التوبة: ٧٢]

ونحن نعلم أن المتعة فى الدنيا قد توجد للإنسان، ولكنها لا توجد خالدة أبدًا، فقد تزول عنك النعمة وتذهب المتعة، كأن تصاب بكارثة مالية

أو تخسر خسارة كبيرة فى تجارتك، أو غير ذلك، وقد تزول أنت عن النعمة بالموت.

ولكنك فى جنات الآخرة تستمتع بقدر ما فيها من كمال وجمال، ويزيدك الله فيها بأن يعطيك الخلود، فلا تفارق النعمة ولا تفارقك؛ لأنه ليس هناك أغيار، وليس هناك موت.

وكل إنسان فى الدنيا يتمتع على قدر قدراته، وتصورات الخلق لأنواع النعيم تختلف باختلاف بيئاتها، ومقاماتها، فقد تكون من الفلاحين، وكل متعتك أن تجلس على مصطبة أمام بيتك، وقد يكون عند إنسان آخر بيت فيه صالون كبير، والثالث له بيت فيه عدة صالونات.

فكل واحد على قدر إمكاناته فى الدنيا، ولكننا فى الآخرة نتمتع كلنا على قدر قدرات الحق سبحانه وتعالى، ويكون متاعنا بقدرة لا تفوقها قدرة، ويكون الجزاء بقدر ما فعلت من خير فى الدنيا، واتبعت منهج الله.

إذن: فأنت الذى تحدد المساحة التى لك فى الجنة، وتحدد المسكن وأنواع النعيم بقدر عملك.

ثم: ما الذى يهددك فى نعيم الدنيا؟

الذى يهدد الناس فى الدنيا أحد شيئين:

- إما أن تزول عنهم النعمة فيفتقروا.

- وإما أن يزولوا هم عن النعمة بالموت.

ولكن نعمة الآخرة ليس فيها هذا التهديد، إنها النعمة الخالدة، وأهل الجنة فيها خالدون؛ ولذلك يقال: يا أهل الجنة، خلود بلا موت، ونعيم بلا بؤس.

قال رسول الله ﷺ: «ينادى مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا»[1].

ولقد زاد الحق تبارك وتعالى فى وصف الخلود فقال ﴿خالدين فيها أبدا﴾ [التوبة: ١٠٠]

والخلود بقاء طويل جدًا، والأبدية لا تنتهى.

إذن: فالخلود فى جنات عدن خلود دائم، وهى جنات يعلو فيها التنعيم لدرجة من علوها لا يحب الإنسان أن يتركها أبدًا، لأنها أعلى مراتب الجنة ،ولا يوجد أحسن منها.

والإنسان حينما يكون بمكان فإنه لا ينتقل منه إلا إذا زهد ما فيه، فلو كان ما فى جنات عدن مما يُزْهَد فيه بعد فترة ما وصفها الله بهذا الوصف.

ولكى يصل الإنسان إلى النعيم لابد من موجد لهذا النعيم، وهو الله سبحانه وتعالى، وما يتمتع الإنسان به وهو الجنة، والمنعم عليهم بالنعمة، وهم المؤمنون والمؤمنات.

فمن أطاع الله طمعًا فى الحصول على نعيم الله فى الآخرة، يأخذ هذا النعيم، والذى أطاع الله لذات الله؛ ولأنه سبحانه وتعالى يستحق أن يعبد لذاته ويطاع، يكون فى الآخرة مع التعظيم والتكريم والمحبة واللقاء بالمنعم سبحانه.

إذن: فكل إنسان لما عمل له، فإذا زادت عبادتك عما فرض الله عليك، وأحببت أن تكون دائمًا فى لقاء مع الله، بأن تقوم الليل وتتهجد،

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٣٧) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣١٩) (٣/ ٣٨، ٩٥) والترمذى فى سننه (٣٢٤٦).

وتقرأ القـرآن وتصلى والناس نيام، وتتـقن العمل الذى ترتقى به حـياتك وحيـاة غيرك، وتفـعل ذلك محبـة فى الله الذى يستحق التـعظيم، فأنت تستحق المنزلة الأعلى، وهى أن تكون فى معية الله.

يقول سبحانه:

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ . [القيامة: ٢٢، ٢٣]

والحق سبحانه وتعالى يتجلى على أهل الجنة فترات، ويتجلى على أهل محبوبية ذاته دائمًا.

وعندما يتجلى الحق سبحانه على أهل الجنة يقول:

« يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك. فيقول: هل رضيـتم؟ فيقولـون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيـتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك ».

فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟

فيقولون: يا رب وأى شىء أفضل من ذلك؟

فيقول: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعد، أبدًا» [(١)].

وقد قال الحق سبحانه:

﴿ لِّلَّذِيـــنَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) ﴾ . [يونس: ٢٦]

والحسنى هى الجنة، أما الزيادة فقد قال المفسرون: إنها رؤية المحسن.

فمن أحسن يلقاه الحق سبحانه فى أحضان نعمه ويتجلى عليه برؤيته.

(١) متفق عليه. أخرجه البخـارى فى صحيحه (٦٥٤٩) ، ومـسلم فى صحيحه (٢٨٢٩) عن أبى سعيد الخدرى.

والحسنى: هى عطاء زائد فى الحسنات، فهناك «كادر» للجزاء بالحسنات، يبدأ بعشرة أمثال الحسنة، ويصل إلى سبعمائة ضعف، وهذا «الكادر» لا يحدد فضل الله تعالى، بل الحق سبحانه يزيد من فضله مَنْ يشاء.

ولذلك يجب ألا نفرق بين عدل الله سبحانه فى أن الشىء يساوى الشىء، وفضل الله تعالى فى أن يجزى على الشىء الحسن بأضعاف أضعاف ما نتصور.

وقال قوم من العارفين بالله: إن الزيادة المقصودة هى فى العشرة الأمثال والسبعمائة ضعف، والفضل هو ما فوق ذلك.

وهكذا تتعدد مراتب الجزاء: فهناك العشرة الأمثال، والسبعمائة ضعف، والحسنى والزيادة عن الحسنى.

« أعددت»

يقول الحق سبحانه فى قرآنه:

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

[آل عمران: ١٣٣]

وهكذا نرى أن هذه الجنة قد أعدت للمتقين، ومعنى «أعدت» أى: هُيئت وصنعت وانتهت المسألة.

يؤكد ذلك رسول الله ﷺ فيقول:

«عُرِضَتْ علىَّ الجنة، ولو شئت أن آتيكم بقطاف منها لفعلت».

فعندما يقول الحق سبحانه «أعدت»، فمعناها: أنه أمر قد انتهى الحق من إعداده، وأعد سبحانه الجنة كلها بكلمة «كن» أى: أنها مسألة مفروغ منها.

وما دامت مسألة مفروغًا منها، إذن: فالمصير إليها أو إلى مقابلها مفروغ منه.

لقد أوضح المولى سبحانه بما لا يدع مجالاً للظن أو الشك أنه قد أعد جنة للمؤمنين، وأعد نارًا للكافرين.

وحكى لنا الحق سبحانه وتعالى عن هذه الحياة بما فيها من ثواب ومن عقاب، بما يقنعنا أن فيها نعيمًا مثل الذى نعرفه، فإذا كان هذا النعيم روحيًا، ونحن لا نعرف النعيم الروحى، ولا نعلم شيئًا عنه، فكيف يُغرينا الله عز وجل بشىء لا نعلمه؟

فسبحانه حين يحدثنا عن الجنة إنما يحدثنا عن أشياء من جنس ما نعرف، وليس من جنس ما لا نعرف.

أما أن يقال: إن نعيم الجنة هو النعيم الروحى أو نعيم الخواطر أو ما نسميه آمال النفس، كأن يتخيل إنسان جائع أنه أكل كمية كبيرة من اللحم أو السمك، فتسعد روحه بذلك من غير واقع يحدث، فكل هذا غير حقيقى.

هم يقولون هذا الكلام، لأنهم إذا ما تصوروا نعيم الجنة كالخواطر فسوف يكون عذاب النار مقابلاً أيضًا لنعيم الجنة، أى: سيكون عذاب الخواطر، وفى هذا تصور لعذاب سهل، لأنهم يخافون عذاب النار فيريدونه عذابًا روحيًا.

ولكن الإحساس بالنعيم والعذاب لابد أن يكون له واقع يشبهه فى الدنيا، وإلا ما وُجد فى أنفسنا ما يجعلنا نرغب فى نعيم الجنة ونخاف من عذاب النار.

لذلك فإن نعيم الجنة حق، وعذاب النار حق.

وهنا يبرز سؤال هو: لأى عمل هم صالحون؟

والإجابة تقتضى قليلاً من التأمل، إننا نقول فى حياتنا: إن فلانًا رجل صالح، ومقابله «رجل طالح» والإنسان صالح للخلافة، فقد جعل الله آدم وذريته خلفاء فى الأرض، والرجل الصالح يرى الشىء الصالح فى ذاته، فيترك هذا الشىء على ما هو عليه أو يريده صلاحًا.

أما الرجل الطالح أو المفسد فهو يأتى إلى الشىء الصالح فيفسده ولا يفعل صلاحًا.

إن الرجل ـ على سبيل المثال ـ قد يجد بئرًا يأخذ منه الناس الماء، فإن لم يكن من أهل العزم فإنه يتركه على حاله، وإن كان طالحًا فقد يردم البئر بالتراب.

أما إن كان الرجل من أهل الصلاح والعزم فهو يحاول أن يبدع فى خدمة الناس التى تستقى من البئر فيفكر ليبنى خزانًا عاليًا ويسحب الماء من البئر بآلة رافعة، ويُخرج من الخزان أنابيب ويمدها إلى البيوت، فيأخذ الناس المياه وهم فى المنازل.

إن هذا الرجل قد استخدم فكره فى زيادة صلاح البئر.

إذن: فكلمة «رجل صالح» تعنى أنه صالح لأن يكون خليفة فى الأرض، وصالح لاستعمار الأرض، أى: أن يجعلها عامرة، فيترك الصالح فى ذاته، أو يزيده صلاحًا ويحاول أن يصلح أى أمر غير صالح.

الرجل الصالح عندما يعمل فهو يحاول أن يجعل عمله عن عمق علم، فلا يُقْدِم على العمل الذى يعطى سطحية نفع، ثم يسبب الضرر من بعد ذلك.

فالحق سبحانه هو الذى استخلف الإنسان فى الكون ليعمر هذا الكون.

يقول تعالى: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾. [هود: ٦١]

وعمارة الكون تنشأ بالتفكير فى الارتقاء والصالح فى الكون، فالصالح نتركه صالحًا، وإن استطعنا أن نزيد فى صلاحه فلنفعل.

فالإسلام هو كل حركة فى الحياة تناسب خلافة الإنسان فى الأرض، فكل حركة تؤدى إلى عمار الأرض فهى من العبادة، فلا تأخذ العبادة على أنها صوم وصلاة فقط؛ لأن الصوم والصلاة وغيرهما هى الأركان التى ستقوم عليها حركة الحياة التى سَيُبْنى عليها الإسلام.

فلو جعلت الإسلام هو هذه الأركان فقط جعلت الإسلام أساسًا بدون مبنى، فهذه هى الأركان التى يُبنى عليها الإسلام.

إذن: فالإسلام هو كل ما يناسب خلافة الإنسان فى الأرض لنقيم الأركان والبنيان معًا، ونكون قد أدينا مسئولية الإيمان.